جامعة الأزهر – فرع البنات بالقاهرة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
قسم التفسير وعلوم القرآن

نساء مؤمنات ذكرن

في القرآن الكريم

إعداد

الدكتورة: عزة أحمد عبد الرحمن
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات – القاهرة



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في كتابه الكريم : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[1] وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله بالهدى والرحمة ، فرفع الظلم عن المرأة وكرمها أعظم تكريم ، فهو القائل: "استوصوا بالنساء خيراً"[2] صلى الله عليك يا أرق وأرحم خلق الله

أما بعد:

فالقصص القرآني لم يذكر لمجرد التسلية وملأ الفراغ ، وإنما ذكر للعبرة والعظة، ولقد اهتم القرآن بالحديث عن مجموعة من النساء المؤمنات ، وكان الهدف هو: التأسي بهن والاقتداء بسيرتهن ، فمن ثم أردت أن أكتب في هذا الموضوع مستعينة بالله عز وجل ، وسائلة إياه التوفيق

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مريم عليها السلام.

المبحث الثاني: امرأة فرعون.

المبحث الثالث: أهل بيت موسى عليه السلام.

المبحث الرابع: ملكة سبأ.

---

١ سورة النحل: الآية ٩٧.

٢ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء ، ح ٥١٨٦ ، ج٣ ، ص١١٩٧.

المبحث الخامس: نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث.

منهج البحث:

أولاً: قمت بجمع الآيات المتعلقة بالموضوع ، ثم قمت بتفسيرها من كتب التفسير المعتمدة ، معلقةً على ما يحتاج إلى تعليق.

ثانياً: كنت أعقب على بعض الأحداث بتعليق عنوانه: وقفة تدبر أبين فيه الأمور المستفادة من الحدث.

ثالثاً: قمت بتخريج الآيات والأحاديث الواردة في البحث ، كما بينت الكلمات الغريبة في الهامش

وبعد فإني أشكر الله عز وجل على توفيقه لي ، فله الحمد والمنة.

* * *

المبحث الأول: مريم عليها السلام

يشتمل هذا المبحث على سبع مسائل:

المسألة الأولى: نسب مريم عليها السلام

المسألة الثانية: نذر أمها إياها لخدمة بيت المقدس

المسألة الثالثة : طفولتها عليها السلام

المسألة الرابعة: اصطفاء الله إياها

المسألة الخامسة: تبشير الملائكة مريم بعيسى عليه السلام

المسألة السادسة: حملها بعيسى عليه السلام، وولادتها

المسألة السابعة: مواجهتها قومها بالطفل النبي

* * *

المسألة الأولى: نسب مريم عليها السلام:

تحدث القرآن الكريم عن نسب مريم عليها السلام، وذلك بقوله تعالى (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) (١)

فمن هو عمران عليه السلام ؟ " قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله هو عمران بن ياشم بن ميشا بن آمون بن حزقيا بن إبراهيم ابن غراريا بن باوشي بن أجر بن بهو بن بازم بن مقاسط بن إنشا بن أبيان بن رخيعم بن سليمان ابن داود عليهما السلام فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم " (٢).

* * *

١ سورة التحريم: الآية ١٢.

٢ تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٣٦٠.

المسألة الثانية: نذر أمها إياها لخدمة بيت المقدس:

كانت أم مريم لا تلد، فلما رزقها الله حملا، نذرت أن يكون ما في بطنها محررا لخدمة بيت المقدس، ولم تكن تدري أذكر هو أم أنثى ؟ وفي ذلك يقول الله تعالى: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (١)

" إذ قالت امرأة عمران قال أبو عبيدة: إذ زائدة وقال محمد بن يزيد: التقدير اذكر إذ وقال الزجاج: المعنى واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران وهي حنة بالحاء المهملة والنون بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدة عيسى عليه السلام وليس باسم عربي ولا يعرف في العربية حنه اسم امرأة وفي العربية أبو حنة البدري ويقال فيه: أبو حنة بالباء بواحدة وهو أصح"(٢) ويقال: لما حملت قالت: لئن نجاني الله ووضعت ما في بطني لجعلته محررا ومعنى (لك) أي لعبادتك محررا نصب على الحال وقيل نعت لمفعول محذوف أي إني نذرت لك ما في بطنى غلاما محررا والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب: أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع ويجوز على المجاز في أخرى وأما التفسير فقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد وكانوا أهل بيت من الله بمكان وأنها كانت تحت شجرة فبصرت بطائر يزق فرخا فتحركت نفسها لذلك ودعت ربها أن يهب لها ولدا ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها محررا: أي

١ سورة آل عمران: الآيتان: ٣٥، ٣٦.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ج٤ ، ص٦٥.

عتيقا خالصا لله تعالى خادما للكنيسة حبيسا عليها مفرغا لعبادة الله تعالى وكان ذلك جائزا في شريعتهم وكان على أولادهم أن يطيعوهم فلما وضعت مريم قالت: رب إني وضعتها أنثى يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة قيل لما يصيبها من الحيض والأذى وقيل لا تصلح لمخالطة الرجال وكانت ترجو أن يكون ذكرا

قوله تعالى: (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى)قال بن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم. و(أنثى) حال وإن شئت بدل فقيل: إنها ربتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها رواه أشهب عن مالك

قوله تعالى: (والله أعلم بما وضعت)هو على قراءة من قرأ وضعت بضم التاء من جملة كلامها فالكلام متصل وهي قراءة أبي بكر وبن عامر [1] وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شيء ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرر في نفس المؤمن وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزية لله تعالى وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قدم وتقديره أن يكون مؤخرا بعد وإنى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (والله أعلم بما وضعت) قال المهدوى وقال مكى: هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال: (والله أعلم بما وضعت) أم مريم قالته أو لم تقله ويقوي ذلك أنه لو كان من كلام أم مريم لكان وجه الكلام: وأنت أعلم بما وضعت لأنها نادته في أول الكلام في قولها: رب إنى وضعتها أنثى وروى عن بن عباس بما وضعت بكسر التاء أي قيل لها هذا

(وليس الذكر كالأنثى) وهذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بينة حالها ومقطع كلامها فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها فلما رأته انثى لا تصلح

١ حجة القراءات: ص ١٦٠.

وأنها عورة اعتذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها ولم ينصرف مريم لأنه مؤنث معرفة وهو أيضا أعجمي قاله النحاس والله تعالى أعلم قوله تعالى: (وإنى سميتها مريم)يعني خادم الرب في لغتهم (وإنى أعيذها بك)يعني مريم (وذريتها)يعني عيسى وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا بن مريم وأمه)[1] ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) قال علماؤنا: فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها قال قتادة: كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمه جعل بينهما حجاب فأصابت الطعنه الحجاب ولم ينفذ لها منه شيء قال علماؤنا: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس واغواؤه فإن ذلك ظن فاسد فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بانواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم الله مما يرومه الشيطان كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)هذا مع أن كل واحد من بنى آدم قد وكل به قرينه من الشياطين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمريم وابنها وإن عصما من نخسه فلم يعصما من ملازمته لها ومقارنته والله أعلم "[2]

١ أخرجه مسلم كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، ح ٢٣٦٦، ج ٤، ص ١٨٣٨.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ج٤، من ص٦٦:ص٦٩ بتصرف.

السمات الشخصية لأم مريم رضي الله عنهما

أولا: إنها امرأة قلبها عامر بالإيمان والدليل على ذلك: نذرها جنينها، فلذة كبدها لله عز وجل، شكرا له على نعمته، فقد انتقلت من الشكر باللسان إلى الشكر العملي، وهذه مرتبة عليا في الإيمان.

ثانيا: حياؤها الشديد من الله عز وجل، وذلك حين اعتذرت إليه بقولها (رب إني وضعتها أنثى).

ثالثا رجاحة عقلها وحكمتها، ويتضح ذلك في اختيار اسم الطفلة حيث إن كلمة " مريم " تعني خادم البيت.

رابعا: إسلامها الكامل لله، وحسن توكلها عليه، ويتضح ذلك في تضرعها لله عز وجل أن يحفظ ابنتها من الشيطان الرجيم.

المسألة الثالثة: طفولتها عليها السلام:

هيأ الله لمريم أسباب الصلاح، بتربيتها تربية صالحة في بيئة صالحة حسنة، طيبة، حيث خالتها وزوجها " زكريا " عليه السلام.

قال تعالى (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) [1]

" قوله: فتقبلها ربها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَنًا } الباء فيه للتأكيد، وأصل نظم الكلام فتقبّلها قبولاً حسناً، فأدخلت الباء على المفعول المطلق ليصير كالآلة للتقبل فكأنه شيء ثانٍ، وهذا إظهار للعناية بها في هذا القبول، وقد عرف هذا القبول بوحي من الله إلى زكريا بذلك وأمره بأن يكفلها زكريا أعظم أحبارهم، وأن يوحى

١ سورة آل عمران: آية ٣٧.

إليه بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد، ولم يكن ذلك للنساء قبلها، وكل هذا إرهاصاً بأنه سيكون منها رسول ناسخ لأحكام كثيرة من التوراة؛ لأنّ خدمة النساء للمسجد المقدّس لم تكن مشروعة.

ومعنى: { وأنبتها نباتاً حسناً }: أنشأها إنشاءً صالحاً، وذلك في الخلق ونزاهة الباطن، فشبه إنشاؤها وشبابها بإنبات النبات الغضّ على طريق الاستعارة، (ونباتا) مفعول مطلق لأنبَت وهو مصدر نبت وإنما أجري على أنبت للتخفيف.

{ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا }.

عُدَّ هذا في فضائل مريم، لأنه من جملة ما يزيد فضلها لأنّ أبا التربية يكسب خلقه وصلاحه مُربّاه.

وزكريا كاهن إسرائيلي اسمه زكريا من بني أَبِيًّا بن باكر بن بنيامين من كَهَنة اليهود، جاءته النبوءة في كبره وهو ثاني من اسمه زكريا من أنبياء بني إسرائيل وكان متزوجاً امرأةً من ذرية هارون اسمها (اليصابات) وكانت امرأته نسيبةَ مريم كما في إنجيل لوقا ، قيل: كانت أختها والصحيح أنّها كانت خالتها، أو من قرابة أمها، ولما ولدت مريم كان أبوها قد مات فتنازع كفالتها جماعة من أحْبار بني إسرائيل حرصاً. على كفالة بنت حبرهم الكبير، واقترعوا على ذلك، فطارت القرعة لزكريا، والظاهر أنّ جعل كفالتها للأحبار لأنّها محررة لخدمة المسجد فيلزم أن تربّى تربيةً صالحة لذلك.

والمحراب بناء يتّخذه أحد ليخلو فيه بتعبده وصلاته، وأكثر ما يتخذ في علوّ يرتقي إليه بسلّم أو درج، وهو غير المسجد. وأطلق على غير ذلك إطلاقات على وجه التشبيه أو التوسّع" [1]

١ التحرير والتنوير: ج٣ ، ص٢٣٥.

" ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا)قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف وعن مجاهد (وجد عندها رزقا)أي علما أو قال صحفا فيها علم رواه ابن أبي حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء وفي السنة لهذا نظائر كثيرة فإذا رأى زكريا هذا عندها (قال يا مريم أنى لك هذا)أي يقول من أين لك هذا (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وقفة تدبر:

هيأ الله لمريم أسباب الصلاح منذ أن كانت جنينا في رحم أمها، وذلك حين نذرتها أمها لخدمة بيت المقدس، وحين تضرعت إلى الله بالدعاء بأن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، وحين وضعتها في بيئة صالحة في بيت نبي من أنبياء بني إسرائيل، فتربت تربية صالحة، فكانت بذلك من الصالحات، ولذا ينبغي لنا أن نأخذ بالأسباب في تربية أولادنا، فنربيهم على القرآن والسنة بدلا من أن نربيهم على موائد الغرب وثقافتهم وعاداتهم ، فينشئون نشأةً مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وعلينا أن نستقيم على منهج الله ففي ذلك صلاح أولادنا، وعلينا أن ندعوا لهم بالصلاح منذ تكوينهم كما فعلت أم مريم عليها السلام.

* * *

المسألة الرابعة: اصطفاء الله مريم عليها السلام:

لقد كانت مريم امرأة صالحة، عابدة، بلغ من صلاحها أن اتخذت لنفسها مكانا تتعبد فيه، وتخلو فيه مع ربها، فرزقها الله الكرامة، ثم اصطفاها على نساء العالمين، وفي ذلك يقول الله عز وجل (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ* يَمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) [1]

" عطف على جملة { إِذْ قالت امرأةُ عمران}. انتقال من ذِكر أمّ مريم إلى ذكر مريم.

ومريم علَم عبراني، وهو في العبرانية بكسر الميم، وهو اسم قديم سميت به أخت موسى عليه السلام، وليس في كتب النصارى ذكر لاسم أبي مريم أمّ عيسى ولا لمولدها ولكنها تبتدىء فجأة بأنّ عذراء في بلد الناصرة مخطوبة ليوسف النجار، قد حملت من غير زوج.

وتكرّر فعل { اصطفاك } لأنّ الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي، وهو جعلها منزّهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير. فلذلك لم يُعدّ الأول إلى متعلّق. وعدُيّ الثاني. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء سائر الأزمنة. " [2]

" وفي المراد بالتطهير أربعة أقوال: أحدها: أنه التطهير من الحيض قاله ابن عباس وقال السدي كانت مريم لا تحيض وقال قوم من الحيض والنفاس ، والثاني: من مس الرجال روي عن ابن عباس أيضا ، والثالث: من الكفر قاله الحسن و مجاهد ، والرابع: من الفاحشة والإثم قاله مقاتل.

---

١ سورة آل عمران: الآيتان ٤٢، ٤٣.

٢ التحرير والتنوير: ج٣ ، ص٢٤٣.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد[١]" وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة عن النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" [٢]

" ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولدا من غير أب فقال تعالى (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) وقال مجاهد كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها والقنوت هو طول الركوع في الصلاة يعني إمتثالا لقول الله تعالى (يا مريم اقنتي لربك قال الحسن يعني أعبدي لربك (واسجدي واركعي مع الراكعين)أي كوني منهم" .

* * *

١ أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك...، ح ٣٤٣٢، ج٢، ص ٧٨٦.

٢ أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك...، ح ٣٤٣٣، ج ٢، ص ٧٨٦.

المسألة الخامسة: تبشير الملائكة مريم بعيسى عليه السلام

هل يعتبر حمل مريم بعيسى عليه السلام مع كونه على خلاف العادة من البشارات ؟

نعم يعتبر من البشارات، وذلك لأن القرآن وصفه بأنه بشرى قال تعالى (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[١] فهو بشرى بالنسبة لمريم عليها السلام وذلك للثواب الجزيل الذي تناله بالصبر على الشدائد التي تترتب على هذا الحمل، وهو بشرى لقومه لأنه رسول الله إليهم وهو بشرى للمسلمين لأنه بشر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وسوف ينزل في آخر الزمان فيتبع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد بشر الله مريم بعيسى عليه السلام حين اعتزلت قومها لتخلو لعبادة ربها في مكان شرقي وفي ذلك يقول الله عز وجل (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً* فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً* قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياً* قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً* قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً)[٢]

" واذكر في الكتاب مريم)القصة إلى آخرها هذا ابتداء قصة ليست من الأولى والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا (إذ انتبذت) أي تنحت وتباعدت والنبذ الطرح والرمي قال الله تعالى: (فنبذوه وراء

١ سورة آل عمران: الآية ٤٥.

٢ سورة مريم: من الآية ١٦ إلى الآية ٢١.

ظهورهم) (من أهلها)أي ممن كان معها و (إذ)بدل من (مريم) بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها والانتباذ الاعتزال والانفراد واختلف الناس لم انتبذت فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس وقال غيره: لتعبد الله وهذا حسن وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه فتنحت من الناس لذلك ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة فدخل عليها جبريل عليه السلام فقوله: (مكانا شرقيا)أي مكانا من جانب الشرق والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس والشرق بفتح الراء الشمس وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها حكاه الطبري وحكى عن ابن عباس أنه قال " إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة لقول الله عز وجل: (إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا)فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة [1]" وقالوا: لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه واختلف الناس في نبوة مريم فقيل: كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل في صفة دحية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام والأول أظهر .

قوله تعالى: (فأرسلنا إليها روحنا) قيل: هو روح عيسى عليه السلام لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها وقيل: هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة والظاهر أنه جبريل عليه السلام لقوله: (فتمثل لها)أي تمثل الملك لها (بشرا)تفسير أو حال (سويا)أي مستوى الخلقة لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته

١ جامع البيان: ج٩، ص٥٩.

ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فــ (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا أي ممن يتقي الله البكالي: فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى الثعلبي: كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا وقيل تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يتقى منه في البخاري قال أبو وائل علمت مريم أن التقي ذو نهية حين قالت إن كنت تقيا وقيل: تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت قاله وهب بن منبه حكاه مكي وغيره بن عطية: وهو ضعيف ذاهب مع التخرص فقال لها جبريل عليه السلام: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) جعل الهبة من قبله لما كان الاعلام بها من قبله وقرأ ورش عن نافع (ليهب لك على معنى أرسلني الله ليهب لك وقيل معنى لأهب بالهمز محمول على المعنى أي قال أرسلته لأهب لك ويحتمل) ليهب (بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه ف (قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر) أي بنكاح (ولم أك بغيا)أي زانية وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء وروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها قاله بن جريج بن عباس أخذ جبريل عليه السلام ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى"[1] قال الطبري: " وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياما وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين فكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة ".

١ الجامع لأحكام القرآن: ج١١، ص٧٨.

المسألة السادسة: حمل مريم بعيسى عليه السلام ، وولادتها إياه.

قال تعالى (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً* فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً* فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً* وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً* فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً) [١].

حملت مريم بعيسى عليه السلام بنفخ الله تعالى فيها من روحه وقد " ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: (فنفخنا فيه من رُوحنا)(التحريم: ١٢) أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام: (وَنفختُ فيهِ مِن رُوحِي)(الحجر: ٢٩) وقال فنفخنا فيها لأن عيسى / عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله: (فنفخنا فيه من رُوحنا) وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ)(آل عمران: ٥٩) ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: (وَنفختُ فيه من رُوحي)فكذا ههنا وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: (لِأَهَبَ لَكِ)(مريم: ١٩) أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ إليه. "[٢]

أرجح القول الذي ذهب إلى أن النافخ هو الله تبارك وتعالى لتصريح القرآن بذلك، ثم حملت مريم بعيسى عليه السلام.

١ سورة مريم: من الآية ٢٢ إلى الآية ٢٦.

٢ مفاتيح الغيب: ج٢١ ، ص١٧٢.

" فلما حملت ضاقت ذرعا ولم تدر ماذا تقول للناس فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به غير أنها أفشت سرها وذكرها أمرها لاختها أمرأة زكريا وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك فحملت أمرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها فأعتنقتها وقالت أشعرت يا مريم أني حبلى فقالت لها مريم وهل علمت أيضا أني حبلى وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بين إيمان وتصديق.

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر وقال عكرمة ثمانية أشهر قال ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر وقال ابن جريج أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد الله الثقفي سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال لم يكن إلا أن حملت فوضعت وهذا غريب وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما [١]) وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما [٢]، وقال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة [٣])فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما

١ سورة المؤمنون: الآيات ١٢ و ١٣ ومن الآية ١٤.

٢ يقصد بالصفتين: النطفة والعلقة والمضغة ، والحديث المروي في ذلك هو: قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك...الحديث أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ح٣٢٠٨ ، ج٢ ص٧٣٦ ، ومسلم كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي... ح ٢٦٤٣ ، ج٤ ، ص٢٠٣٦.

٣ سورة الحج: الآية ٦٣.

تحمل النساء بأولادهن ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه فحمل نفسه على أن عرض لها في القول فقال يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي قالت وما هو قال هل يكون قط شجر من غير حب وهل يكون زرع من غير بذر وهل يكون ولد من غير أب فقالت نعم وفهمت ما أشار إليه أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها ولما استشعرت مريم من قومها إتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانا قصيا أي قاصيا منهم بعيدا عنهم لئلا تراهم ولا يروها قال محمد بن إسحاق فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجابا فلا يراها أحد ولا تراه وقوله (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) أي فأضطرها وألجأها الطلق إلى جذع نخلة في المكان الذي تنحت إليه وقد اختلفوا فيه فقال السدي كان شرقي في محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس وقال وهب بن منبه ذهبت هاربة فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق وفي رواية عن وهب كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في

قرية هناك يقال لها بيت لحم.[١]"

(فأجاءها المخاض) وجع الولادة (إلى جذع النخلة)وذلك أنها حين أخذها الطلق صعدت أكمة فإذا عليها جذع نخلة وهو ساقها ولم يكن لها سعف فسارت إليها وقالت جزعا مما أصابها (يا ليتني مت قبل هذا) اليوم وهذا الأمر (وكنت نسيا منسيا) شيئاً متروكا لا يعرف ولا يذكر[٢]"

" وفيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة فإنها عرفت أنها ستبتلي وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية فقالت (يا ليتني مت قبل هذا)أي قبل هذا الحال (وكنت نسيا منسيا)أي لم أخلق ولم أك شيئا قاله ابن عباس وقال السدي قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل (وكنت نسيا منسيا) نسي فترك طلبه كخرق الحيض إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي وقال قتادة (وكنت نسيا منسيا)أي شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا وقال الربيع بن أنس) وكنت نسيا منسيا هو السقط وقال ابن زيد لم أكن شيئا قط[٣]"

" قوله تعالى: (فناداها من تحتها) قرئ بفتح الميم وكسرها قال ابن عباس: المراد ب (من جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقاله علقمة والضحاك وقتادة ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم وقوله(ألا تحزني) تفسير النداء وأن مفسرة بمعنى أي المعنى: فلا تحزني

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص١١٨.
٢ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج٢ ، ص٦٧٩.
٣ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص١١٩.

بولادتك (قد جعل ربك تحتك سريا)يعني عيسى والسري من الرجال العظيم الخصال السيد قال الحسن: كان والله سريا من الرجال ويقال: سرى فلان على فلان أي تكرم وفلان سري من قوم سراة وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريب جذع النخلة قال ابن عباس: كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم والنهر يسمى سريا لأن الماء يسري فيه [1]"

" فائدة قوله { وَهُزِي إليك بجذع النخلة تساقط عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً * فَكُلِى } أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطباً ببركة تحريكها إياه، وتلك كرامة أخرى لها. ولتشاهد بعينها كيف يُثمر الجذع اليابس رطباً. وفي ذلك كرامة لها بقوّة يقينها بمرتبتها.

والباء في { بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله مثل { وامسحوا برؤوسكم } [المائدة ٦] وقوله { ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة } [البقرة: ١٩٥].

وضمن { وَهُزِي } معنى قَرّبي أو أدني، فعُدي بالباء إلى الجذع، أي حرّكي جذع النخلة وقرّبيه يَدْنُ إليك ويَلِنْ بعد اليبس ويُسقط عليك رطباً والرطب: تمر لم يتم جفافه.

والجَنيّ: فعيل بمعنى مفعول، أي مجتنى وهو كناية عن حَدثان سقوطه، أي عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل لأن الرطب متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيب طعماً."[2]

قال ابن عباس: كان جذعا نخرا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف ثم اخضر فصار بلحا ثم

١ الجامع لأحكام القرآن: ج١١ ، ص٩٤.

٢ التحرير والتنوير:ج١٦ ، ص٨٨.

احمر فصار زهوا ثم رطبا كل ذلك في طرفة عين فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء واستدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما فإن الله تعالى قد وكل بن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية وكانت الآية تكون بألا تهز والأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده وأن ذلك لا يقدح في التوكل خلافا لما تقوله جهال المتزهدة وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا [1]) الآية فلما ولدت أمرت بهز الجذع قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه واشتغل سرها بحديثه وأمره وكلها إلى كسبها وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده ، " قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت وكذلك التحنيك وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل.[2]"

(فكلي وأشربي وقري عينا) أي طيبي نفساوقوله (فإما ترين من البشر أحدا) أي مهما رأيت من أحد (فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي (فلن أكلم اليوم إنسيا) قال أنس بن مالك في قوله (إني نذرت للرحمن صوما) قال صمتا وكذا قال ابن عباس والضحاك وفي رواية عن أنس صوما وصمتا وكذا قال قتادة وغيرهما والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام

١ سورة آل عمران: من الآية ٣٧.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ج١١ ، ص٩٦.

والكلام نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد."[1]

وقفة تدبر:

لم يذكر القرآن قصة هذه السيدة العذراء لمجرد التسلية ، أو ملئ الفراغ ، وإنما ذكرها لأمرين أحدهما: دفع الخرافات التي أثارها النصارى حول هذه القصة

والثاني: تعليم المسلمين عامة ، والنساء خاصة ، الصبر على الشدائد ، والتسليم لله ، والرضى بقضائه ، ولن يكون ذلك إلا بالإيمان الصحيح ، والتربية الصالحة.

ولقد صور القرآن حال الفتاة العذراء عندما حملت تصويرا رائعا كأننا نشاهدها ، يقول صاحب الظلال ما نصه: " إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملا عاديا كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية.. كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصارا؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة.

ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين. فلا نجري طويلا وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها.. فلنشهد مريم تنتبذ مكانا قصيا عن أهلها، في موقف أشد هولا من موقفها الذي أسلفنا. فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق، بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة. ثم تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية. تواجه المخاض الذي { أجاءها } إجاءة إلى جذع النخلة واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها. وهي وحيدة فريدة،

---

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص١٢٠.

تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء.. فإذا هي قالت: { يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا } فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهي تتمنى لو كانت { نسيا } تلك الخرقة التي تتخذ لدم الحيض، ثم تلقى بعد ذلك وتنسى!

وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى:

{ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلي واشربي وقري عينا، فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا }..

يا لله! طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها. يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها. ويدلها على حجتها وبرهانها!

لا تحزني.. { قد جعل ربك تحتك سريا } فلم ينسك ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جدولا ساريا الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبا. فهذا طعام وذاك شراب. والطعام الحلو مناسب للنفساء. والرطب والتمر من أجود طعام النفساء. { فكلي واشربي } هنيئا. { وقري عينا } واطمئني قلبا. فأما إذا واجهت أحدا فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للرحمن صوما عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة ولا تجيبي أحدا عن سؤال..

ونحسبها قد دهشت طويلا، وبهتت طويلا، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا.. ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها. وإلى أن حجتها معها.. هذا الطفل الذي ينطلق في المهد.. فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها.."[1]

---

١ في ظلال القرآن: ج١٦ ، ص٢٣٠٦.

المسألة السابعة: مواجهتها قومها بالطفل النبي

قال تعالى: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يَمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)[1]

روي أن مريم عليها السلام لما أطمأنت بما رأت من الآيات وعلمت أن الله سيبين عذرها أتت به تحمله مدلة من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه روي أن قومها خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة به والفري العظيم الشنيع قاله مجاهد والسدي وأكثر استعماله في السوء وهو من الفرية فإن جاء الفري بمعنى المتقن فمأخوذ من فريت الأديم للإصلاح وليس بالبين وأما قولهم في المثل جاء يفري الفري فمعناه بعمل عظيم من العمل في قول أو فعل مما قصد ضرب المثل له وهو مستعمل فيما يختلف ويفعل والفري من الأسقية الجديد

واختلف المفسرون في معنى قوله عز وجل (يا أخت هارون) فقالت فرقة كان لها أخ اسمه (هارون) لأن هذا الاسم كان كثيرا في بني إسرائيل تبركا بأسم هارون أخي موسى " وروى المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى أهل نجران في أمر من الأمور فقال له النصارى إن صاحبك يزعم أن مريم أخت هارون وبينهما في المدة ستمائة سنة قال المغيرة فلم أدر ما أقول فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال ألم يعلموا أنهم كانوا

---

١ سورة مريم: من الآية ٢٧ إلى الآية ٣٣.

يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين [1]" فالمعنى أنه اسم وافق اسما وقال السدي وغيره بل نسبوها إلى (هارون) أخي موسى لأنها كانت من نسله ، وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين إن مريم ليست أختاً لهارون أخي موسى فقالت عائشة كذبت فقال لها يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وخير وإلا فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة قال فسكتت وقال قتادة كان في ذلك الزمن في بني إسرائيل رجل عابد منقطع إلى الله يسمى هارون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبل إذ كانت موقوفة على خدمة البيع أي يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لما أتيت به وقالت فرقة بل كان في ذلك الزمن رجل فاجر اسمه هارون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ ذكره الطبري ولم يسم قائله والمعنى (ما كان أبوك) ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها والبغي التي تبغي الزنا أي تطلبه. [2]"

من ذلك يتبين أن العلماء اختلفوا في المراد بقوله تعالى (يا أخت هارون) على ثلاثة أقوال القول الأول: أنه رجل صالح فيهم شبهوها به ، والثاني: أنه هارون أخو موسى ، لأنها كانت من نسله ، والثالث: أنه رجل فاجر فيهم عيروها به.

الترجيح:

أرجح القول الأول وهو: أن المراد بهارون المذكور رجل صالح شبهوها به ، وذلك لحديث المغيرة المتقدم ، حيث ذكر النبي صلى الله عليه وسلم " أنهم كانوا يتسمون بأسماء الصالحين فيمن كان قبلهم.

---

١ أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الآداب ،باب النهى عن التكنى بأبى القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، ح٢١٣٥، ج٣، ص١٦٨٥ .

٢ المحرر الوجيز: ج٤ ، ص١٤.

وقوله (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا)أي أنهم لما استرابوا في أمرها وأستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) قال ميمون بن مهران فأشارت إليه قالت كلموه فقالوا على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيا وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا)أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم "[١]

قال قتادة: المهد حجر أمه وقال عكرمة: المرباة أي المرجحة وقيل: سريره وقيل: المكان الذي يستقر عليه واستشكلت الآية بأن كل من يكلمه الناس كان في المهد صبيا قبل زمان تكليمه فلا يكون محلا للتعجب والإنكار وأجاب الزمخشري عن ذلك بوجهين: الأول: أن كان الإيقاع مضمون لجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والدال عليه أن الكلام مسوق للتعجب فيكون المعنى كيف نكلم من كان بالأمس وقريبا منه هذا الوقت في المهد وغرضهم من ذلك استمرار حال الصبي به ولم يبرح بعد عنه ولو قيل: من هو في المهد لم يكن فيه تلك الوكادة من حيث السابق كالشاهد على ذلك ومن على هذا موصولة يراد بها عيسى عليه السلام الثاني أن يكون) نكلم (حكاية حال ماضية ومن موصوفة والمعنى كيف نكلم الموصوفين بأنهم في المهد أي ما كلمناهم إلى الآن حتى نكلم هذا وفي العدول عن الماضي إلى الحال إفادة التصوير والاستمرار وهذا

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص١٢١.

كما في الكشف وجه حسن ملائم "[١]

(قال إني عبد الله) أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لربه وقوله (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة قال نوف البكالي لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه فنزع الثدي من فمه وأتكأ على جنبه الأيسر وقال (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) إلى قوله (ما دمت حيا) وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناني: رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا)الآية وقال عكرمة (آتاني الكتاب)أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى وقوله (وجعلني مباركا أينما كنت) قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلما للخير وفي رواية عن مجاهد نفاعا وقال ابن جرير: " حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال لقى عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده [٢]"

وقد أجمع الفقهاء على قول الله (وجعلني مباركا أينما كنت) وقيل ما بركته قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان وقوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[٣] وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) قال أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت وقوله (وبرا بوالدتي) أي وأمرني ببر والدتي ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى

١ روح المعاني: ج١٦ ، ص٨٩ – الكشاف: ج٣ ، ص١٥.

٢ جامع البيان: ج١٦ ، ص٨٠.

٣ سورة الحجر: الآية ٩٩.

كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)[١] وقال (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير)[٢] وقوله (ولم يجعلني جبارا شقيا) أي ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك قال سفيان الثوري الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب وقوله (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا إثبات منه لعبوديته لله عز وجل وأنه مخلوق من خلق الله يحيي ويميت ويبعث كسائر الخلائق ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد."[٣]

***

١ سورة الإسراء: من الآية ٢٣.

٢ سورة لقمان: من الآية ١٤.

٣ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص١٢٢.

المبحث الثاني: آسية امرأة فرعون

يشتمل هذا المبحث على ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: اسمها ونسبها

المسألة الثانية: موقفها مع موسى عليه السلام

المسألة الثالثة: إيمانها بالله ، واستشهادها رضي الله عنها

* * *

المسألة الأولى: اسمها ونسبها:

ذكر الألوسي أن اسمها: آسية بنت مزاحم [1]، غير أن القرآن أطلق عليها امرأة فرعون ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن اسمها آسية ، فقال صلى الله عليه وسلم " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة عن النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [2]"

المسألة الثانية: موقفها مع موسى عليه السلام:

قال تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) [3].

" يقول تعالى ذكره (وقالت امرأة فرعون) له هذا (قرة عين لي ولك) يا فرعون فقرة عين مرفوعة بمضمر هو هذا أو هو وقوله (لا تقتلوه) مسألة من امرأة فرعون أن لا يقتله ، وذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال فرعون أما لك فنعم وأما لي فلا فكان كذلك. [4]"

قال ابن إسحق إن الله تعالى ألقى محبته في قلبها لأنه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور، ولأنها لما فتحت التابوت رأته يمتص إصبعه، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته، قال ابن عباس لما قالت: (امرأة فرعون قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ) فقال فرعون يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه، فقال عليه السلام (والذي يحلف

١ روح المعاني: ج٢٨ ، ص١٦٤.

٢ سبق تخريجه في ص ٨.

٣ سورة القصص: الآية ٩.

٤ جامع البيان: ج٢٠ ، ص٣٤.

به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها)

ثم قالت المرأة (عَسَى أَن يَنفَعَنَا) فنصيب / منه خيراً (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)لأنه أهل للتبني. أما قوله: (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) فأكثر المفسرين على أنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وعلى يده، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل، وقال ابن عباس يريد لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو إسرائيل وأهل مصر أن التقطناه، وهذا قول الكلبي. " [1]

المسألة الثالثة: إيمانها بالله ﷻ:

قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

" قوله تعالى: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) واسمها آسية بنت مزاحم قال يحيى بن سلام: قوله (ضرب الله مثلا للذين كفروا) مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم بنت عمران ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين. وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون وكانت آسية آمنت بموسى وقيل: هي عمة موسى آمنت به قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم فأثنوا عليها فقال لهم: إنها تعبد ربا غيري فقالوا له: اقتلها فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة)ووافق ذلك

١ مفاتيح الغيب: ج٢٤ ، ص١٩٧.

حضور فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك فقبض روحها وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذب بالشمس فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها وقيل: سمر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة وقيل: لما قالت: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) أريت بيتها في الجنة يبنى وقيل: إنه من درة عن الحسن ولما قالت: (ونجني) نجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم ومعنى (من فرعون وعمله) تعني بالعمل الكفر وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته وقال بن عباس: الجماع (ونجني من القوم الظالمين) قال الكلبي: أهل مصر مقاتل: القبط قال الحسن وبن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب[١]"

وقفة تدبر:

إن امرأة فرعون قدوة للمؤمنين عامة ، وللمؤمنات خاصة ، لأن الله جعلها مثلاً للمؤمنين ، والسر في ضرب المثل هو: الاستغراب والدهشة ، فما وجه الدهشة في إيمان امرأة فرعون وجه الاستغراب في إيمانها هو: أنها آمنت رغم ما تعرفه عن زوجها من القسوة والشدة على من يخالفه ، آمنت رغم النعيم الذي كان يحيط بها من كل جانب فتركت الدنيا بزخارفها خلف ظهرها وأقبلت على الآخرة ، آمنت وهي تتوقع ما يمكن أن يحدث لها من فرعون وجبروته ، فكانت بحق أسوة للمؤمنين والمؤمنات رضي الله عنها وأرضاها.

---

١ الجامع لأحكام القرآن: ج١٨ ، ص٢٠٤.

المبحث الثالث: أهل موسى عليه السلام

يشتمل هذا المبحث على مسألتين:

المسألة الأولى: أم موسى وأخته

المسألة الثانية: زوج موسى وأختها

* * *

المسألة الأولى: أم موسى وأخته:

تحدث القرآن عن أم موسى وعن أخته ، وذلك حين أوحي الله إلى أمه بإلقائه في البحر ، وحين طلبت أمه من أخته أن تقص أثره ، وفي ذلك يقول الله عز وجل:

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[1])

" ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الاعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما فولد هرون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعا وشرعا قال تعالى (وألقيت عليك محبة مني) فلما ضاقت به ذرعا ألهمت في سرها وألقى في خلدها ونفث في روعها كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى إن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في

١ سورة القصص: الآية ٧.

اليم ولا تخافي ولاتحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت إن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وخشين إن يفتتن عليها في فتحه دونها فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها.[1]"

وهذه الآية اشتملت على أمرين ونهيين وبشارتين وخبرين: " حكى الأصمعي قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول: أستغفر الله لذنبي كله قبلت إنسانا بغير حله مثل الغزال ناعما في دله فانتصف الليل ولم أصله فقلت: قاتلك الله ما أفصحك فقالت: أويعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه الآية فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.[2]"

أخت موسى تقص أثره:

قال تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[3])

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) " اختلف في معنى ذلك فقال ابن عباس: فارغا

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص٣٨٢.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ج١٣ ، ص٢٥٣.

٣ سورة القصص: الآيتان: ١٠ و ١١.

من كل شيء إلا من ذكر موسى وقال مالك: هو ذهاب العقل وقال الفقيه الإمام القاضي: نحو قوله (وأفئدتهم هواء) وقالت فرقة: فارغا من الصبر وقال ابن زيد: فارغا من وعد الله تعالى ووحيه إليها أي تناسته بالهم وفتر أثره في نفسها وقال لها إبليس: فررت به من قتل لك فيه أجر وقتلته بيدك وقال أبو عبيدة: فارغا من الحزن إذ لم يغرق. (إن كادت لتبدي به) أي: بأمر ابنها والربط على القلب تأنيسه وتقويته ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضايق رابط الجأش قال قتادة: وربط على قلبها بالإيمان وقوله (لتكون من المؤمنين)أي من المصدقين بوعد الله وما أوحى إليها به ثم قالت لأخت موسى طمعا منها وطلبا (قصيه)والقص طلب الأثر فيروى أن أخته خرجت في سكك المدينة تبحث مختفية بذلك فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يطلبون به امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع و (عن جنب) أي عن ناحية من غير قصد ولا قرب يشعر لها به."[١]

تحقيق وعد الله لأم موسى عليه السلام:

قال تعالى: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ* فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٢])

" اعلم أن قوله: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ)يقتضي تحريمها من قبله فإذا لم يصح بالتعبد والنهي لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته إلى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، فلذلك لم يرضع أو أحدث في لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة

١ المحرر الوجيز: ج٤ ، ص٢٧٩.

٢ سورة القصص: الآيتان: ١٢ و ١٣

فلما تعودها لا جرم كان يكره لبن غيرها، وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أي الثدي أو الرضاع وقوله: (مِن قَبْلُ)أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى عليه السلام، ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ)أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه، ولا يخونونكم فيه والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد، وقال السدي إنها لما قالت: (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه، ولكني إنما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه، وكل ما روي في هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى عليه السلام، لا على ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ بهذا الضرب من اللطف (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)أي فيما كان وعدها من أنه يرده إليها، ولقد كانت عالمة بذلك، ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) فيه وجوه أربعة: أحدها: ولكن أكثر الناس في ذلك العهد لا يعلمون لإعراضهم عن النظر في آيات الله وثانيها: قال الضحاك ومقاتل: يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده إليها وثالثها: هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا ورابعها: أن يكون المعنى إنا إنما رددناه إليها) لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (والمقصود الأصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني، ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع، قال الضحاك: لما قبل ثديها قال هامان إنك لأمه، قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت

أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي، قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر[1] ".

* * *

١ مفاتيح الغيب: ج٢٤ ، ص١٩٨.

المسألة الثانية: زوج موسى وأختها:

هما اللتان قابلهما موسى عليه السلام عند ماء مدين ، وسقى لهما ، وقد تزوج موسى من إحداهما ، وفي ذلك يقول الله عز وجل: (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّىَ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَىَ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىَ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىَ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىَ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[1])

" قوله تعالى: (ولما ورد ماء مدين) مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه والأمة: الجمع الكثير و (يسقون) أي معناه ماشيتهم(من دونهم) معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة ووجدهم(تذودان) ومعناه تمنعان وتحبسان قال بن عباس: تذودان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما قال (ما خطبكما) أي شأنكما ابن عطية: وكان استعمال السؤال

١ سورة القصص: من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٨.

بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الامر فكأنه بالجملة في شر فأخبرتاه بخبرهما وأن أباهما شيخ كبير فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى وحينئذ تردان، قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة وكان زحم الناس يمنعهما فلما أراد موسى أن يسقي لهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى فعن هذا الغلب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فضالتهم في الصهاريج فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما فرق لهما موسى فعمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة قاله بن زيد بن جريج: عشرة بن عباس: ثلاثون الزجاج: أربعون فرفعه وسقى للمرأتين فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة. (ثم تولى إلى الظل)أي إلى ظل سمرة قاله ابن مسعود وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله: (إني لما أنزلت إلي من خير فقير)وكان لم يذق طعاماسبعة أيام وقد لصق بطنه بظهره فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية. "(١)

" لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} أي مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: كانت مستترة بكم درعها. {قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، بل قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر

١ الجامع لأحكام القرآن: ج١٣ ، من ص١٦٧ إلى ص١٧٠ ، ملخصاً.

ما سقيت لنا، يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ} أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده {قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} يقول: طب نفساً وقر عيناً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: {نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال أحدها: أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ[١]} وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو – والله أعلم – احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده. " (٢)

الترجيح:

أرجح القول الذي ذهب إلى أنه ليس هو شعيب النبي وذلك للأسباب الآتية: أولاً: لم يعش شعيب في زمان موسى ، بل كان بينهما أربع مائة سنة. ثانياً: لو كان

١ سورة هود: من الآية ٨٩.

٢ تفسير القرآن العظيم ج١٠ ، ص٤٥١.

شعيب النبي لصرح القرآن باسمه. ثالثاً: اختلاف العلماء في اسم صهر موسى عليه السلام ، فبعضهم ذكر أن اسمه شعيب ، وبعضهم ذكر أن اسمه ثيرون ، وخلاصة القول أن صهر موسى عليه السلام كان رجلاً صالحاً ، ودليل ذلك قوله عن نفسه (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) لم يزكِ نفسه ، بل استثنى.

" وقوله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام، قالت لأبيها {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ} أي لرعية هذه الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} قال لها أبوها: وما علمك بذلك ؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه. وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} قال {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ} أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين، وقوله: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ} أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} أي لا أشاقك ولا أوذيك ولا أماريك، {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد

برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال {أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ} أي فلا حرج علي، مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ[1]} وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر، فقال: "إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر" مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، فعن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل.[2]"

وقفة تدبر:

شاعت حكمة الله أن يلتقي موسى عليه السلام بامرأتين تتسمان بالعفة والطهر والحياء والرقي حيث وقفتا بأغنامهما بعيداً عن الرجال ، منعهما الحياء والفطرة السليمة من الاختلاط بالرجال رغم الضرورة ، ويستدل على حيائهما أيضاً بوصف القرآن حيث وصف الفتاة التي جاءت تدعو موسى عليه السلام: بالحياء ، وبالإضافة إلى هذه الصفات الجميلة كان في إحدهما صفة الفراسة حيث عرفت شخصية موسى فوصفته بالقوة والأمانة ، وهذه الصفات كانت نتيجة للتربية حيث كان أبوهما رجلاً صالحاً يتسم بالصدق والوضوح ، ويتضح ذلك من خلال عرضه على موسى عليه السلام أن يتزوج ابنته ومن ثم يجب علينا أن نقتدي بهؤلاء ، فالقرآن الكريم لم يسق القصص للتسلية ، بل يسوقها للعبرة والعظة.

---

١ سورة البقرة: من الآية ٢٠٣.

٢ تفسير القرآن العظيم: ج١٠ ، ص٤٥٣.

المبحث الرابع: بلقيس ملكة سبأ

يشتمل هذا المبحث على ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الهدهد يخبر سليمان عليه السلام بأمر بلقيس

المسألة الثانية: وصف القرآن لشخصية بلقيس

المسألة الثالثة: إسلام بلقيس

* * *

المسألة الأولى: الهدهد يخبر سليمان بأمر بلقيس:

قال تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ* أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَب بِّكِتَابِي هَـذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)[١]

" يقول تعالى (فمكث) الهدهد (غير بعيد) أي غاب زمانا يسيرا ثم جاء فقال لسليمان (أحطت بما لم تحط به) أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أي بخبر صدق حق يقين وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال (إني وجدت إمرأة تملكهم) قال الحسن البصري: وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ من بيت مملكة وقال زهير بن محمد هى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان وأمها فارعة الجنية وقال ابن جريج: بلقيس بنت ذي شرخ وأمها بلتقة ، وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى (إني وجدت إمرأة تملكهم) كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلاث مئة واثني عشر رجلا منهم على عشرة آلاف رجل وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن والله أعلم وقوله (وأوتيت من كل شيء) أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن (ولها عرش عظيم) يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع

---

١ سورة النمل الآيات من ٢٢ إلى ٢٨.

الجواهر واللآلئ قال زهير بن محمد: كان من ذهب وصفحاته مرمولة بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وكان إنما يخدمها النساء ولها ست مئة امرأة تلي الخدمة قال علماء التأريخ وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناءمحكم وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقه من مشرقه ومثلها في مغربه قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحا ومساء ولهذا قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) أي عن طريق الحق (فهم لا يهتدون) وقوله (ألا يسجدوا لله)معناه (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله) أي لا يعرفون سبيل الحق التي هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها [١]" كما قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون [٢])

" كانت هذه الأمة أمة تعبد الشمس لأنهم كانوا زنادقة فيما روي وقيل كانوا مجوسا يعبدون الأنوار وقوله (ألا يسجدوا) إلى قوله (العظيم) ظاهره أنه من قول الهدهد وهو قول ابن زيد وابن إسحاق ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى اعتراضا بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل. [٣]" وقوله (الذي يخرج الخبء في السموات والأرض) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعلم كل خبئة في السماء والأرض وكذا قال عكرمة

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ص٣٦٢.

٢ سورة فصلت: الآية ٣٧.

٣ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج٤ ، ص٢٥٧.

ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد وقال سعيد بن المسيب الخبء الماء وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من أرزاق المطر من السماء والنبات من الأرض وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض ودواخلها وقوله (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من أقوال وأفعال وهذا كقوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار [١]) وقوله (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أي هو المدعو الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله كما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد [٢]" وإسناده صحيح

(قال سننظر أصدقت) يقول تعالى مخبرا عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) أي أصدقت في إخبارك هذا (أم كنت من الكاذبين) في مقالتك لتتخلص من الوعد الذي أوعدتك (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فأنظر ماذا يرجعون) وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتابا إلى بلقيس وقومها وأعطاه ذلك الهدهد فحمله قيل في جناحه كما هى عادة الطير وقيل بمنقاره وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى

١ سورة الرعد: الآية: ١٠.

٢ الصرد: طائر فوق العصفور ، وقال الأزهري: يصيد العصافير ، والجمع: صردان. لسان العرب: ج٤، ص٢٤٢٧ ، والحديث أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الصيد ، باب ما ينهى عن قتله ، ح٣٢٢٤ ، ج٢ ، ص٢٦٨.

الخلوة التي تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدبا ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين) فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فانه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها قال العلماء لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام[1] .

* * *

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص٣٦٣.

المسألة الثانية: وصف القرآن لشخصية بلقيس:

لم يذكر القرآن الكريم صفات بلقيس صراحة ، وإنما ذكرها ضمناً من خلال ذكر مواقفها وكلامها ، ويمكنني استنباط هذه الصفات فيما يلي:

الصفة الأولى: العدل والإنصاف وإحقاق الحق:

ويتضح ذلك من خلال وصفها كتاب سليمان عليه السلام

قال تعالى: (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* إِنَّهُ من سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ* أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[1])

" وجملة {قَالَت} مستأنفة استئنافا بيانيا لأن غرابة قصة إلقاء الكتاب إليها يثير سؤالا عن شأنها حين بلغها الكتاب.

و {الْمَلأ} الجماعة من أشراف القوم وهم أهل مجلسها. وظاهر قولها {أُلْقِيَ إِلَيَّ} أن الكتاب سلم إليها دون حضور أهل مجلسها. وذلك أن يكون نظام بلاطها أن تسلم الرسائل إليها رأسا..

ووصف الكتاب بالكريم ينصرف إلى نفاسته في جنسه بأن كل نفيس الصحيفة نفيس التخطيط

بهيج الشكل مستوفيا كل ما جرت عادة أمثالهم بالتأنق فيه. ومن ذلك أن يكون مختوما، وقد قيل كرم الكتاب ختمه ليكون ما في ضمنه خاصا باطلاع من أرسل إليه وهو يطلع عليه من يشاء ويكتمه عمن يشاء. قال ابن العربي "الوصف بالكرم في الكتاب غاية الوصف؛ ألا ترى إلى قوله تعالى {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة: ٧٧] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير، والأثير، والمبرور، فإن كان لملك قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلة وهو أفضلها خصلة".

١ سورة النمل من الآية ٢٩ إلى الآية ٣١.

ثم قصت عليهم الكتاب حين قالت {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ} إلى آخره. فيحتمل أن يكون قد ترجم لها قبل أن تخرج إلى مجلس مشورتها، ويحتمل أن تكون عارفة بالعبرانية، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوبا بالعربية القحطانية فإن عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية.

أما الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشىء بها.

وقوله {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ} هو من كلام الملكة ابتدأت به مخاطبة أهل مشورتها لإيقاظ أفهامهم إلى التدبر في مغزاه لأن اللائق بسليمان أن لا يقدم في كتابه شيئا قبل اسم الله تعالى، وأن معرفة اسم سليمان تؤخذ من ختمه وهو خارج الكتاب فلذلك ابتدأت به أيضا.

والتأكيد بــ {إِنَّ} في الموضعين يترجم عما في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على اهتمامها بمرسل الكتاب وبما تضمنه الكتاب اهتماما يؤدي مثله في العربية الفصحى بحرف التأكيد الذي يدل على الاهتمام في مقام لا شك فيه.

وتكرير حرف {إِنَّ} بعد واو العطف إيماء إلى اختلاف المعطوف والمعطوف عليه بأن المراد بالمعطوف عليه ذات الكتابة والمراد بالمعطوف معناه وما اشتمل عليه، كما تقول: إن فلانا لحسن الطلعة وإنه لزكي. وهذا من خصوصيات إعادة العامل بعد حرف العطف مع إغناء حرف العطف عن ذكر العامل، ونظيره قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ[1]}

أعيد {أَطِيعُوا} لاختلاف معنى الطاعتين لأن طاعة الله تنصرف إلى الأعمال

---

١ سورة النساء من الآية ٥٩.

الدينية وطاعة الرسول مراد بها طاعته في التصرفات الدنيوية ولذلك عطف على الرسول أولو الأمر من الأمة.

وقوله {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ} حكاية لمقالها، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة "من محمد رسول الله".

وافتتاح الكتاب بجملة البسملة يدل على أن مرادفها كان خاصا بكتب النبي سليمان أن يتبع اسم الجلالة بوصفي: الرحمان الرحيم، فصار ذلك سنة لافتتاح الأمور ذوات البال في الإسلام ادخره الله للمسلمين من بقايا سنة الأنبياء بعد أن تنوسي ذلك فإنه لم يعرف أن بني إسرائيل افتتحوا كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم."[1]

وقوله: { أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ }: يقول قتادة) لا تجيروا علي { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي.

{ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }: قال ابن عباس: موحدين. وقال غيره: مخلصين. وقال سفيان بن عُيَيْنَة: طائعين." [2]

* * *

---

١ التحرير والتنوير ج١٩ ، ص٢٥٨.

٢ تفسير القرآن العظيم ج١٠ ، ص٤٠٣.

الصفة الثانية والثالثة والرابعة:

العمل بمبدأ الشورى ، العقل والحكمة ، العلم والثقافة:

أما العمل بمبدأ الشورى فيستفاد من مشاورتها للملء ، وأما العقل والحكمة فيستفاد من إسناد الملء الأمر إليها وعدم الإدلاء برأي ، وأما العلم والثقافة فيستفاد من وصفها الملوك بأنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها ، ومن تأكيد القرآن كلامها بقوله تعالى (وكذلك يفعلون)

قال تعالى: (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ* قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ[١])

" قال بن عباس كان معها ألف قيل وقيل: اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الأعظم فأخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض بقولها: (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) فكيف في هذه النازلة الكبرى فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ثم سلموا الأمر إلى نظرها وهذه محاورة حسنة من الجميع ، وفي هذه الآية دليل على صحة المشاورة وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وشاورهم في الأمر [٢]) إما استعانة بالآراء وإما

١ سورة النمل: من الآية ٣١ إلى الآية ٣٥.

٢ سورة آل عمران: من الآية ١٥٩.

مداراة للأولياء وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: (وأمرهم شورى بينهم [١]) والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: قالت يأيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم وحزمهم فيما يقيم أمرهم وإمضائهم على الطاعة لها بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ودخيلة في تقدير أمرهم وكان في مشاورتهم أخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم.

قوله تعالى: (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها وفي هذا الكلام خوف على قومها وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام (وكذلك يفعلون) قيل: هو من قول بلقيس تأكيدا للمعنى الذي أرادته وقال بن عباس: هو من قول الله عز وجل معرفا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبرا به (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور فصدق الله قولها وكذلك يفعلون قال بن الأنباري: وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا وقف تام فقال الله عز وجل تحقيقا لقولها: وكذلك يفعلون[٢]" ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } أي:

١ سورة الشورى: من الآية ٣٨.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ج١٣ ، ص١٩٥.

سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خرَاجا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه. [1]".

* * *

١ تفسير القرآن العظيم: ج١٠ ، ص٤٠٥.

المسألة الثالثة: إسلام بلقيس:

قال تعالى: (قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ* فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ* وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ* قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[1])

" اعلم أن قوله: (نَكِّرُواْ) معناه اجعلوا العرش منكراً مغيراً عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، وذلك لأنه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل، ولا يمتنع صحة ما قيل إن سليمان عليه السلام ألقى إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها ، واختلفوا في (أَتَهْتَدِي) على وجهين: أحدهما: أتعرف أنه عرشها أم لا ؟ كما قدمنا الثاني: أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال: (أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ) وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متنقلاً من المكان البعيد إلى هناك، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام، ويعرف بذلك أيضاً فضل عقلها لأغراض كانت له. " [2]

(فلما جاءت) شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام أي فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (قيل) أي من جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا

١ سورة النمل: من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤.

٢ مفاتيح الغيب: ج٢٤ ، ص١٧٢.

يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) فأنبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الأدب في محاورته عليه الصلاة والسلام (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه عيه الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى: (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام إلى الآن أي صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (إنها كانت من قوم كافرين) تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم إلى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم إلى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملئه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا لإسلامها فقالوا استحسانا لشأنها أصابت في الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الإسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أي وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين

ظهراني الكفرة فمما لا يخف ما فيه من البعد والتعسف."[١]

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ) والصرح القصر كقوله: (فَرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً [٢]) وقيل صحن الدار، والممرد المملس، روي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الإنس والجن والطير، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره وتحققا لنبوته، وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي / إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية، وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا إن في عقلها نقصاناً وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها، ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماءاً راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، وهذا على طريقة من يقول تزوجها، وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه، وحصل كشف الساق على سبيل التبع، فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استترت، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة، فقالت: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت: (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة، فقالت ظلمت نفسي بسوء ظني سليمان، واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا وأنه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها وليس لذلك ذكر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع بصحته."[٣]

١ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ج٦ ، ص٢٨٩.

٢ سورة غافر: من الآية ٣٦.

٣ مفاتيح الغيب: ج٢٤ ، ص٢٧٣.

المبحث الخامس: نساء النبي محمد ﷺ

يشتمل هذا المبحث على مسألتين:

المسألة الأولى: خصائص نساء النبي

المسألة الثانية: تطهير الله لهن ، وأمرهن بالتبليغ

* * *

المسألة الأولى: خصائص نساء النبي:

اختص الله تعالى نساء النبي بأمرين: أحدهما: كونهن أمهات للمؤمنين.

وثانيهما: مضاعفة العذاب عند المعصية ، ومضاعفة الثواب عند الطاعة.

أولا كونهن أمهات للمؤمنين:

قال تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً[١])

" قد علم تعالى شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم فجعله أولى بهم من أنفسهم وحكمه فيهم كان مقدما على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [٢])وفي الصحيح " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين [٣]" وفي الصحيح أيضا " أن عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله لأنت أحب الي من كل شيء إلا نفسي فقال صلى الله عليه وسلم لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي فقال صلى الله عليه وسلم الآن ياعمر[٤]" " قوله تعالى: (وأزواجه أمهاتهم) شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله

---

١ سورة الأحزاب: الآية ٦.

٢ سورة النساء الآية ٦٥.

٣ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان ، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان ، ح١٥ ، ج١ ، ص١٦.

٤ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ح٦٦٣٢ ، ج٣ ، ص١٤٧٦

عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات وقيل: لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التبني وجاز تزويج بناتهن ولا يجعلن أخوات للناس، واختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة على قولين: فروى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أمة فقالت لها: لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم قال بن العربي: وهو الصحيح قلت: لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيما لحقهن على الرجال والنساء يدل عليه صدر الآية: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. (١)" "وقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) أي في حكم الله (من المؤمنين والمهاجرين) أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار وهذه ناسخة لما كان قبلها التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، وقوله تعالى (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والإحسان والوصية وقوله تعالى (كان ذلك في الكتاب مسطورا أي هذا الحكم وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل. (٢)"

الأمر الثاني: مضاعفة العذاب ومضاعفة الأجر:

قال تعالى: (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ

١ الجامع لأحكام القرآن: ج١٤ ، ص١٢٣.

٢ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص٤٧٠.

ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً* وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(١)

" تولى الله خطابهن بعد أن أمر رسوله بتخييرهن فخيرهنّ فاخترنَ الله ورسوله والدار الآخرة فخاطبهن ربُهُنّ خطاباً لأنهن أصبحْنَ على عهد مع الله تعالى أن يؤتيَهُنّ أجراً عظيماً. وقد سمّاه عمر عهداً فإنه كان كثيراً ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب فإذا بلغ هذه الآية رَفَعَ بها صوته فقيل له في ذلك، فقال: أُذكِّرهُنّ العهدَ، ولما كان الأجر الموعود منوطاً بالإحسان أُريد تحذيرهن من المعاصي بلوغاً بهن إلى مرتبة الملكية مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهن عذاباً مضاعفاً. ونداؤُهُنّ للاهتمام بما سيُلْقَى إليهن. ونَادَاهُنّ بوصف { نساء النبي } ليعلَمْنَ أن ما سيُلقَى إليهن خبر يناسب علوّ أقدارهِنّ. والنساء هنا مراد به الحلائل،والفاحشة: المعصية، قال تعالى: { قل إنما حرَّم ربيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن } [الأعراف: ٣٣] وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

والمبيِّنة: بصيغة اسم الفاعل مبالغة في بيان كونها فاحشة ووضوحه حتى كأنها تبيِّن نفسها والمضاعفة: تكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره.

والضعف: مماثل عدد ما. وتقدم في قوله تعالى { فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعفاً من النار } في سورة الأعراف (٣٨). ومعنى مضاعفة العذاب: أنه يكون ضعف عذاب أمثال تلك المعصية إذا صدرت من غيرهنّ، وهو ضعف في القوة وفي المدة، وأريد: عذاب الآخرة.

وجملة وكان ذلك على الله يسيراً } معترضة،. والمعنى: أن الله يحقق وعيده ولا

١ سورة الأحزاب: الآيتان ٣٠ و ٣١

يمنعه من ذلك أنها زوجة نبي، والقنوت: الطاعة، والقنوت للرسول: الدوام على طاعته واجتلاب رضاه لأن في رضاه رضى الله تعالى، قال تعالى: { من يطع الرسول فقد أطاع الله } [النساء: ٨٠]. وأسند فعل إيتاء أجرهنّ إلى ضمير الجلالة بوجه صريح تشريفاً لإيتائهن الأجر لأنه المأمول بهن، وكذلك فعل { وأعتدنا }.

ومعنى { مرتين } توفير الأجر وتضعيفه كما تقدم في قوله تعالى: { ضعفين } [الأحزاب: ٣٠].

وضمير { أجرها } عائد إلى { مَن } باعتبار أنها صادقة على واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم وفي إضافة الأجر إلى ضميرها إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر بأنه يناسب مقامها وإلى تشريفها بأنها مستحقة ذلك الأجر. ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات كرامة لقدرهنّ، وهذه المضاعفة في الحالين من خصائص أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لعظم قدرهن، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة فضل الآتي بها. ودرجة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عظيمة.[1]"

خلاصة ذلك أن الله تبارك وبعالى اختص زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأمرين: كونهن أمهات للمؤمنين ، وهذه الأمومة ليست كأمومة التبني ، فلا يحرم الزواج من بناتهن ، ويبقى الحجاب مفروضاً في حقهن ، والأمر المشترك بينهن وبين الأمهات بالتبني هو: حرمة الزواج بهن قال تعالى: (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً[2])

والأمر الثاني الذي اختص الله به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هو:

١ التحرير والتنوير: ج٢١ ، ص٣١٨ ملخصاً.

٢ سورة الأحزاب: من الآية ٥٣.

مضاعفة العذاب عند المعصية ، ومضاعفة الثواب عند الطاعة ، وقد ترتب ذلك على تخيير الله لهن بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله فاخترن الله ورسوله ، فكان هذا عهد منهن مع الله عز وجل.

المسألة الثانية: تطهير الله لهن وأمرهن بالتبليغ:

قال تعالى: (يَٰنِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً* وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَـاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً* وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً[1])

" هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك فقال تعالى مخاطبا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ثم قال تعالى (فلا تخضعن بالقول) قال السدي وغيره يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى (فيطمع الذي في قلبه مرض) أي دغل (وقلن قولا معروفا) قال ابن زيد قولا حسنا جميلا معروفا في الخير ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها وقوله تعالى (وقرن في بيوتكن) أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لاتمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات [2]" وفي

١ سورة الأحزاب: من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤.

٢ أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج٢ ، ص٤٢٨.

رواية وبيوتهن خير لهن "

وقوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال مجاهد كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية وقال قتادة) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (يقول إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك وقال مقاتل بن حيان) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده قوله تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لاشريك له وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين (وأطعن الله ورسوله) وهذا من باب عطف العام على الخاص وقوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح "(١)

هل خالفت عائشة أمر الله بالقرار في البيت عندما خرجت إلى البصرة في موقعة الجمل ؟ إن عائشة رضي الله عنها كانت مجتهدة ، فقد خرجت للصلح بين المسلمين ، يقول ابن عشور ما نصه: " وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في الفتنة التي تدعى: وقْعةَ الجَمَل فلم يغير عليها ذلك كثير من جلّة الصحابة منهم طلحة والزبير. وأنكر ذلك عليها بعضهم مثل عَمار بن ياسر، وعلي بن أبي طالب، ولكلَ نظَر في الاجتهاد. والذي عليه المحققون مثل أبي بكر بن العربي أن ذلك كان منها عن اجتهاد فإنها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين لتسعى بين فريقي الفتنة بالصلح فإن الناس تعلقوا بها وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة ورجَوْا بركتها أن تخرج فتصلح بين الفريقين،

١ تفسير القرآن العظيم: ج٣ ، ص٤٨٣ ملخصاً.

وظنّوا أن الناس يستحيون منها فتأولت لخروجها مصلحة تفيد إطلاق القرار المأمور به في قوله تعالى: { وقرن في بيوتكن } يكافىء الخروج للحج. وأخذت بقوله تعالى: { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما } [الحجرات: ٩] ورأت أن الأمر بالإصلاح يشملها وأمثالها ممن يرجون سماع الكلمة، فكان ذلك منها عن اجتهاد. وقد أشار عليها جمع من الصحابة بذلك وخرجوا معها مثل طلحة والزبير وناهيك بهما. وهذا من مواقع اجتهاد الصحابة التي يجب علينا حملها على أحسن المخارج ونظن بها أحسن المذاهب، كقولنا في تقاتلهم في صِفّين وكاد أن يصلح الأمر ولكن أفسده دعاة الفتنة ولم تشعر عائشة إلا والمقاتَلة قد جرت بين فريقين من الصحابة يوم الجمل. ولا ينبغي تقلد كلام المؤرخين على علاّته فإن فيهم من أهل الأهواء ومن تلقّفوا الغثّ والسمين."(١)

" لما ضمِن الله لهن العظمة أمرهن بالتحلي بأسبابها والتملّي من آثارها والتزود من علم الشريعة بدراسة القرآن ليجمع ذلك اهتداءَهن في أنفسهن ازدياداً في الكمال والعلم، وإرشادَهن الأمة إلى ما فيه صلاح لها من علم النبي صلى الله عليه وسلم

وفعل { اذْكُرن } يجوز أن يكون من الذُكر بضم الذال وهو التذكّر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسَيْن ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن مما ينزل فيها وما يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبيّن فيها من الدين، ويشمل معنى كنائياً ثانياً وهو تذكر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهن موقع تلاوة القرآن.

ويجوز أن يكون من الذِّكر بكسر الذال، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي بلّغْنه للناس بأن يقرأن القرآن ويبلغن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته.

١ التحرير والتنوير: ج٢٢ ، ص١٠.

وفيه كناية عن العمل به. والتلاوة: القراءة، أي إعادة كلام مكتوب أو محفوظ، أي ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم و { من آيات الله والحكمة } بيان لما يتلى فكل ذلك متلوّ، وذلك القرآن، وقد بين المتلو بشيئين: هما آيات الله، والحكمة، فآيات الله يعم القرآن كلَّه، لأنه معجز عن معارضته فكان آية على أنه من عند الله.

وعطف { والحكمة } عطف خاص على عام وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاماً شرعية قال تعالى بعد ذكر الأحكام التي في سورة الإسراء (٣٩) { ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة } أي ما يتلى في بيوتهن عند نزوله، أو بقراءة النبي ودراستهن القرآن، ليتجدد ما علِمْنه ويلمع لهن من أنواره ما هو مكنون لا ينضُب معينه، وليكُنَ مشاركات في تبليغ القرآن

وجملة { إن الله كان لطيفاً خبيراً } تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة.

والتعليل صالح لمحامل الأمرِ كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشقّ على المُسدَى إليه.

وفيما وُجّه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدي النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث على ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقَّيْن الخبرَ ويبلغنه، ولأن الخبير، أي العليم إذا أراد أن يُذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تاماً لا خلل ولا غفلة.

فمعنى الجملة أنه تعالى موصوف باللطف والعلم كما دلّ عليه فعل { كان } فيشمل عمومُ لطفِه وعلمِه لطفَه بهن وعلمَه بما فيه نفعهن.[1]

---

١ التحرير والتنوير: ج٢٢ ، ص١١.

الخاتمة

١- إن سيدنا عيسى عليه السلام من ذرية سيدنا إبراهيم ، وذلك لأن عمران أبا مريم ينتهي نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام.

٢- من السمات الشخصية لأم مريم: رجاحة العقل والحكمة ، ويتضح ذلك من اختيارها اسم الطفلة ، فكلمة مريم تعني: خادم الرب أو خادم البيت في لغتهم.

٣- هيأ الله لمريم أسباب الصلاح في تربيتها ، فعلينا أن نأخذ بالأسباب في تربية أولادنا فنربيهم على منهج القرآن والسنة ، وعلينا أن نستقيم على منهج الله ففي ذلك صلاح أولادنا.

٤- علينا أن ندعوا لأولادنا بالصلاح منذ تكوينهم كما فعلت أم مريم عليهما السلام.

٥- مدة حمل مريم بعيسى عليه السلام كانت على الراجح: تسعة أشهر.

٦- جواز تمني الموت عند الفتنة.

٧- ذكر القرآن قصة السيدة مريم لفائدتين: إحداهما: دفع الخرافات التي أثارها النصارى حول هذه القصة ، والثانية: تعليم المسلمين عامة والنساء خاصة الصبر على الشدائد ، والتسليم لله والرضى بقضائه.

٨- ما قيل: بأن صهر موسى عليه السلام هو شعيب النبي ، لم يصح ، وذلك لأن بين شعيب وبين موسى أربع مائة سنة.

٩- تتصف بلقيس ملكة سبأ: بالعقل والحكمة والعدل وإحقاق الحق والعلم والثقافة والعمل بمبدأ الشورى.

١٠- إن أمومة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين لا تحرم بناتهن ، ويبقى الحجاب مفروداً في حقهن.

١١- الأمر المشترك بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين الأمهات

بالتبني هو: حرمة الزواج بهن.

١٢- إن خروج السيدة عائشة إلى البصرة كان باجتهاد منها ، فإنها كانت تريد أن تصلح بين المسلمين ، وكان خروجها رضي الله عنها بإقرار معظم الصحابة.

(رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

* * *

فهرس المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- التحرير والتنوير – للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور – ط دار سحنون للنشر والتوزيع.

٣- الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي – ط دار الشعب.

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – لأبي السعود محمد بن محمد العمادي – ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي – ط دار الكتب العلمية لبنان – ١٤١٣ ه – ١٩٩٣ م تحقيق عبد السلام عبد الشافي.

٧- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – لعلي بن أحمد الواحدي أبو الحسن – ط دار القلم الدار الشامية دمشق بيروت – ١٤١٥ ه الطبعة الأولى تحقيق صفوان عدنان داودي.

٨- تفسير البيضاوي – للبيضاوي – ط دار الفكر بيروت.

٩- تفسير القرآن العظيم – للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى عام ٧٧٤ ه – ط دار الفكر.

١٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ ه – ط دار الفكر ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م.

١١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي – ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٢- زاد المسير في علم التفسير – لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي – ط دار المكتب الإسلامي بيروت – ١٤٠٤ ه الطبعة الثالثة.

١٣- سنن ابن ماجه – للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني – ط دار الفكر.

١٤- صحيح البخاري – للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – المتوفى عام ٢٥٦ ه – ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة.

١٥- صحيح مسلم – للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري – المتوفى عام ٢٦١ ه – ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

١٦- في ظلال القرآن – للإستاذ سيد قطب – ط دار الشروق بيروت – ١٣٩٤ ه – ١٩٧٤ م.

١٧- مفاتيح الغيب – لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي – ط دار الكتب العلمية بيروت – ١٤٢١ ه – ٢٠٠٠ م الطبعة الأولى.

١٨- لسان العرب – لابن منظور – ط دار المعارف.

***

فهرس الموضوعات

***